وسواء أكانت هذه المدائح على ألياف الخيزران أم نسيج الحرير أم أوراق النبات أم الأحجار ؛ فهى تعبر عن نظرة الاحترام . فقد نشأ الإنسان فى الطبيعة على خوف من القوة واليأس والبطش والهول . لذلك مجد البحر والنهر والرعد والثور والفيل والأسد والمطر والشمس والقمر والنار والهواء والجبل وغيرها . فقال عبارات المديح وتوجه بها إلى هذه القوى خاضعاً خاشعاً معجباً . فلما أحس بوجود الإله خضع لجلاله وانحنى أمام سيطرته وبأسه . فجعل لكل شىء إلهاً أول الأمر ، ثم توجه إلى الآلهة بصلواته وعبادته ، وهذه الصلوات والدعوات إن هى إلا مديح وتضرع سواء أكانت فى التشفع أم التماس الخلاص من مرض أو خطر ؛ أم كانت مجرد عبادة خالصة وإحساس عميق .

وفى جدران المعابد بمصر اكتشف العلماء « كتاب الموتى » ، وقرءوا فيه من الدعوات والعبادات ما يفيدنا فى فهم أدبهم ومديحهم . ومنها : « السلام عليك أيها الإله الأعظم : جئتك يا إلهى متحلياً بالحق متخلياً عن الباطل ، فلم أظلم أحداً ، ولم أسلك سبيل الضالين لم أحنث فى يمين ، ولم تضلنى الشهوة فتمتد عينى لزوجة أحد من رحمى ، ولم تمتد يدى لمال غيرى ، لم أقل كذباً ، ولم أكن لله عاصياً ، ولم أسع فى إيقاع بعبد عند سيده » .

وفى هذا الدعاء اعتراف بإله الحق ، وخشوع له وخضوع لجلاله ، وفيه نظرة القدماء إلى الرجل الصالح فى الدنيا ممن يستحق الثواب : فهو من لا يظلم ولا يحنث ولا يخدع ولا يسرق ولا يكذب ولا يخالف الوعد ؛ وهى صفات ظلت على الزمان موضع المدح منذ عهد المصريين إلى اليوم . لم تتغير ولم تتبدل . فالفضائل هى الفضائل والمزايا هى المزايا .

وفى الأدب المصرى هذا ، اكتشف العلماء كذلك على ورق البردى شكاوى الفلاح وقد توجه إلى سيده بقوله : « يا سيدى يا عظيم العظماء ! يا أغنى الأغنياء ! ومن ليس فوقه إلا عظيم أعظم ، وغنى أغنى . . . إن لسانك لسان الميزان وفمك وشفتيك ذراعاه ، فإذا لم تعدل فمن يكبح الشر ؟ . . . يأيها